

ارتسامات أولية حول عروض الملحون

هناك اختلاف بين بين الباحثين حول عدد بحور القصيدة الملحونة:

* فالأستاذ محمد الفاسي رحمه الله، يشير إلى أن عدد هذه البحور خمسة، ويحددها كالتالي:

- المبيت/- مكسور الجناح/- المشتب/- السوسي المزلوك/- الذكر

ويعطي توضيحات قيمة حول كل بحر من هذه البحور التي يسميها (المرمات).

* أما الدكتور عباس الجراري، فقد أشار إلى أن هذه البحور لا تزيد عن خمسة، حيث حذف بحرا من البحور التي ذكرها محمد الفاسي، والبحر الذي حذفه هو (الذكر).

* أما الشيخ الحاج أحمد سهوم، والأستاذ عبد الله الشليح رحمه الله، والشيخ أحمد بدناوي، فهم يرون أن عدد هذه البحور لا يخرج عن ثلاثة بحور وهي:

- المبيت/- مكسور الجناح/- السوسي، حيث قاموا بإلحاق (المشتب) بمكسور الجناح أو السوسي، وحذفوا بحر (الذكر).

* وبالنسبة لي شخصيا، أرى أن البنية الإيقاعية لقصيدة الملحون لا تخرج عن أربعة بحور وهي:

- المبيت/- مكسور الجناح/- المشتب/- والسوسي، حيث قمنا بتثبيت بحر (المشتب) اعتبارا من كونه يشكل بنية إيقاعية متفردة، وبعيدة كليا عن الشكل البنائي للقصيدة في مكسور الجناح أو في المشتب، كما أننا قمنا بإقصاء بحر (الذكر) الذي أدرجه الأستاذ محمد الفاسي، لأننا اعتبرنا (الذكر) غرض وليس شكلا بنائيا.

وإذا رجعنا للشكل البنائي الذي ظهرت عليه قصيدة الملحون في بداياتها الأولى، فلا شك أننا سنرصد هذه البدايات التي تشكل البذور الجنينية الأولى، والتي تتميز بكون القصيدة من حيث النظم لازالت مهلهلة، كما نجد عند مولاي الشاد الفيلالي (ق9هـ) في مقطوعاته التي نجد منها:

خُوكْ عَبْدُكَ وَأَنْتَ دِيمَا لَخُوكْ مَمْلُوكْ * لَا تَأْدِيَةُ اللَّهِ يَهْدُكَ مَا يَأْدِيكَ

لَكَ عَايِشْ وَأَنْتَايَا لَهُ كُنْ عَايِشْ * لَا تُكُونْ وَشِي طُوبُ فُشِي بَنِي أَهْشِيشْ

عِشُوا بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَالْقُرْآنِ مَعَ الْحَدِيثِ

أو أنها لم تستطع التخلص من بقايا القصيدة الزجلية كما جاءتنا من الأندلس، والتي تستعمل الكثير من الفصيح، مما يسمى عند أشياخ الملحون ب(التبريص)، وكنموذج عنها قصيدة الشيخ ابن عبود الفاسي الذي كان على عهد الوطاسيين وبني مرين، حيث يقول في مطلع قصيدته المشهورة:

مَالِ الْخَيْلِ الَّتِي اعْتَرَكْتَ فَالْمِيدَانُ * خَافَتْ هَازِي لَدَيْكَ وَذِيكَ الْهَادِي

ولم يستقم الوزن ويأخذ شكله الرسمي النهائي المتميز إلا مع الشيخ عبد الله بن حسانين الذي كان معاصرا لمولاي الشاد، وهو مثله من تافيلالت أيضا، حيث شق طريقا بالزجل المغربي جعله بعيدا عن النماذج السابقة، وكشف عن أصالته وانطلاقته من البيئة المغربية، حيث سماه "اقريض الملحون"، ويقول في إحدى قصائده التي تشكل البدايات:

نَبْدًا بِاسْمِ اللَّهِ أَنْظَامِي يَا إِلَهِي ابْغَى لَوْزَانَ * لَوْزَانَ خَيْرَ لِي أَنَا يَا مَنْ قَوْلُ كَانَ حَتَّى كَانَ
رَبِّ إِلَهِي الْهَمْنِي نَمْدُحُ جَدَّ لَشَرَافٍ يَا لَخَوَانٍ * بِالشَّعْرِ السَّلِيلِ الْفَايِزِ هُوَ يَكُونُ لِي عَوَانُ
حَتَّى نَقُولَ مَا قَالُو عَشَّاقُ النَّبِيِّ فَكُلُّ أَرْمَانٍ * وَنَكُونُ فَلْقَرِيضُ الْمَلْحُونُ أَنَا الْمَادْخُو حَسَانُ
بِاللُّوْغِ وَاللُّغَا وَاللُّغُو بَيْنَ اللُّهَا مَعَ لَسْنَانٍ * وَالْحَبُّ ذُ الشَّفِيعِ الشَّافِعُ فَلَقَلْبُ ذُ لَدْخَالُ تُصَانُ
تَارِيخُ خَلْتِي "رَخْلُ" عَدُّ زَمَانِهَا فَكُلُّ أَرْمَانٍ * وَالْقَائِلِينَ كَاغُ امْخَضْرَا وَأَنَا افْقِيهِمْ وَزَانُ
وَسَمِي أَفْلَامْتِي عَبْدُ اللَّهِ بْنِ حَسَانِ الْوَزَانُ * أَسَائِلِينَ عَنِّي فَاضْرَا عَاصِي وَمَعْدُنُ النِّقْصَانُ
وَسَلَامُ رَبِّنَا لِلشَّرْفَةِ وَأَهْلِ الْهَدْيِ فَكُلُّ امْكَانٍ * وَالنَّاطِمِينَ عَن مِيزَانِي وَإِلَهِي إِيْزِيدُ لَو مِيزَانُ

وهكذا سنلاحظ أنه من خلال قصيدته هاته قد حقق جملة من المعطيات غير مسبوقة في فن الزجل، جعلت قصائده ذات ميزة خاصة أطلق عليها فيما بعد اسم: "الملحون"، ومن هذه الإحقاقات التي رسخها عبد الله بن حسانين في قصيدته المذكورة:

- إطلاق اسم على هذا النوع من النظم، حيث سماه ب: النظام/ لوزان/ الشعر السليس/ القريض الملحون.

- حدد موضوع هذا الشعر في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، معارضا بذلك شعر العبث الذي كان يروج في وقته، وهو شعر القصص والأحاجي وغيرها.

- أن شاعر الملحون لم يكن أميا ولم ينظم الملحون عن إعاقة، حيث ذكر شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت، فمن عرفه بهذا الشاعر؟

- حبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم جعله يمدحه بأكثر من لسان (اللوع: الأمازيغية/ اللغا: اللهجة الدارجة/ اللغوة: اللغة العربية المشرقية الفصيحة).

- تحديد تاريخ نظم القصيدة التي سماها ب(الحلة)، وقد حدد تاريخ نظمها بالحروف الأبجدية (رخلة) التي لا تفك إلا بحساب الجمل: ف(الراء) بمائتين، و(الخاء) بستمئة أما (اللام) فالعدد الذي يقابله هو ثلاثين، ليكون التاريخ 830. أي القرن التاسع.

- ترجسية الشاعر: وتتجلى من خلال ذكر اسمه والفخر بذاته: واسمي فلامتي...

- تحديد الموقع الجغرافي الذي ينتمي إليه الشاعر: أسايلين عني فضرأ...

- فتح المجال لمن سيأتي بعده للنظم على منواله، بل وابتكار أوزان وقياسات أخرى إن استطاعوا لذلك سبيلا: والناظمين عن ميزاني... باعتبار أن الملحون ما امقلد

وسنلاحظ أن هذه النماذج التي سبق ذكرها كلها جاءت في المبيت المثني الشبيه بالقصيدة الفصيحة.

والمبيت نوع من أنواع عروض الملحون، وهو النوع الذي نظمت فيها غالب قصائد الملحون، وعدد بحوره حسب ما أحصاه محمد الفاسي 175 بحرا، أما أقياساته فكثيرة لا تحصى ونذكر من بينها:

1/ قياس المشركي: أو (لحويط لقصير)، وهو أكثر القياسات استعمالاً في الملحون، حيث كان هو السائد في مجال النظم قبل ظهور (ماية الكباحي) على يد الشيخ عبد الجليل المصمودي، وأبياته تتكون من شطرين كل شطر يتكون من (10) مقاطع، وقد أعطاه الأستاذ محمد الفاسي الأرقام التالية:

- قياس (15)، وكنموذج عليه:

/ الناشفة للحاج الصديق الصويري

/ دمعة على يتيم لعبد المجيد وهبي

فاليالي وعلى عتبة فباب شي دار * ابلا امغطي نايم دري بلا وسادة
تحت نقضا والجوع اطواه ذاق لمرار * بين لعباد ايتيم اشريد عاش مدى

/ ترحيل الشمس لمحمد بن علي المسفيوي

/ غيثنى يا رسول الله لبن الفاطمي الرركاكي

غيثنى يا رسول الله روح لروح * ادخيل لك بالحي القيوم عالج الروح

/ الشيطانية لعبد القادر بوخريص

/ يا المولى تكفيني هول شر لصحاب لعباس بن بوسنة

.....
- قياس (15) أ: ومن نماذجه:

/ الزردة

يا الوالع بالزردة كل كن بطار * لا اتكون ابخيل، اتشمر على الزرادي

/ فاطمة

/ الفصادة، وكلها لامتيرد

/ الواوية

يا الهاوي تهوى من لا يليه سطوة * ثب يا راسي وارجع للغني القوي

/ الإدريسية وهي لابن علي ولد أرزين

/ الإسرانيلىة

/ الثانية

اللعب من غير اشطارة فوق روس حربات * هكذاك مثلث اينادم في اعشرتو

/ التوسل

/ الدار وهي لغبد القادر العلمي

- قياس (15) ب وهو - (3).7. 10 وكنموذج عليه:

/ المعشوق لابن الفاطمي الرركاكي

يا اعلاج القلب المحروق * يا المعشوق * لا اتهون ابميسورك من الكيد طلقه

والخلاصة: نجد في هذا القياس أنواع عديدة منها:

/ قياس (10/10) أو (9/9) ونجد فيه قصائد مثل فاطمة - الدار - دمعة على يتيم

/ قياس (9/10) قصيدة العزو للمغراوي

لاش ساكت يا من أفرق أوجوه لحباب * هات راسك لي واجي ننوحو

/ قياس (7.3.10) الباتول للسي التهامي

واكويت من اهوهم فادخالي * الله ينصرك آمينة ويدوم عزك أ لغزال البتول

/ قياس (7.3.10) صلي على الرسول التاقي لابن ارقية:

/ قياس (7.3.7.3) مثلا: الصلاة على المهدي لمحمد بن علي المسفيوي:

الصلاة على المهدي * اضيا اثمادي * عين لهدى وروح افادي * اشفيح لعباد

ومن أنواع المشركي هذا نذكر:

أ/ المشركي أبو ارجل: وهو القياس (16) من المشركي، أي (10/10)، وكمثال عليه قصيدة:

ما انريد افراكك أ رايذة افراكي * اشحال من زين اتعيبو خفت الزهاكة

وسنلاحظ أن الفرق بينه وبين المشركي الذي سبق أن ذكرنا أن (المشركي أبو ارجل) يمتاز بتقطيعين بالمد خصوصا التقطيع التاسع، فيكون تلحينه خاصا، وبالتالي لا يتضمن اعروبيات حيث أنها لا تتناسب مع تلحينه، بل تكون فيه فقط النواعر، (اهنية) للشيخ الجيلالي امثيرد، (الرامي والدامي) للكحيلي، (الزعرية) للمدغري....

ب - المشرقي المشقق، ويسمى التلمساني، وعددى تقاطيعه (9/9)

ج - المشرقي المرجل: وهو قياس (72) كما حدده الفاسي أي (13.6.13) وكنموذج عليه الطبيب لابن اسليمان/ العزيزة لامثيرد

لله جود وانظر جرح الذات في تفريزة + أ لالة عزيزة +

أنا في علر وجنتك والطرف الكحيل الغامز

القافية:

فاطمة شرح الله امعاك بين لريام * واش الحبيب يكافي بالجفا احبيبو

اللعب من غير اشطارة فوق روس حربات * هكذا مثلت اينادم في اعشرتو